بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير العابدين

بشرح

رياض الصالحين

للإمام النووي رحمه الله (ت ٦٧٦) .

باب المحافظة على الأعمال

فضائل – منوعات – أقوال - فوائد

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

بدأ هذا الشرح في يوم الإربعاء ٢٢ / ٤ / ١٤٣٣هـ

١٥- باب في المحافظة عَلَى الأعمال

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحديد : ١٦] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** ﴾ [الحديد : ٢٧] ، وَقالَ تَعَالَى: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً** ﴾ [النحل : ٩٢] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ [الحجر : ٩٩] .

- قَالَ الله تَعَالى ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ .

(**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ**) أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم لذكر الله ، أي مواعظ الله التي ذكرها في القرآن ، وعلى هذا الذكر مصدر أضيف إلى الفاعل والقول الثاني : أن الذكر مضاف إلى المفعول ، والمعنى لذكرهم الله ، أي يجب أن يورثهم الذكر خشوعاً ، ولا يكونوا كمن ذكره بالغفلة فلا يخشع قلبه للذكر (**وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**) يعني القرآن (**وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**) نهي الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد (**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**) أي خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين ، وكأنه إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر.

- معنى قسوة القلب : غلظتها وشدتها بحيث لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير .
- أسباب قسوة القلب :

أولاً : نقض العهد مع الله .

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) .

قال ابن عقيل يوماً في موعظته : يا من يجد في قلبه قسوة ، احذر أن تكون نقضت عهداً ، فإن الله يقول (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ..) .

الثاني : طول الأمل .

قال تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) .

ولذلك طول الأمل ينسي الآخرة ، كما قال علي : أخوف ما أخاف عليكم اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى ، فطول الأمل ينسي الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق .

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل) .

الثالث : كثرة الأكل ، لا سيما إن كان من الشبهات أو الشهوات .

قال بشر : خصلتان تقسّيان القلب : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل .

الرابع : كثرة الذنوب .

قال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وفي المسند قال ﷺ (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، فلذلك الران الذي ذكر الله في كتابه : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

قال بعض السلف : البدن إذا عري رقّ ، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعته .

قال ابن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب ويورث الذل إدمانها .

وترْك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسِك عصيانها .

- وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** ﴾ .

(**وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**) أي : أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم ، وهو الذي بشر بمحمد ﷺ بعده كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) (**وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ**) أي : وأعطيناه الإنجيل ، وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه (**وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً**) الذين اتبعوه هم الحواريون ، جعل الله في قلوبهم مودة لبعضهم البعض ، ورحمة يتراحمون بها بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك .

- قوله تعالى (ورأفة) الرأفة الرقة والخشية واللين وهي أخص من الرحمة .

كما قال تعالى (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) .

قال السعدي : ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً ، حتى كانوا على شريعة عيسى عليه السلام (**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا**) أي : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها من عند أنفسهم ، وهي الانقطاع للعبادة والانفراد في الأديرة ، والسياحة في الأرض ، والمبالغة في التقشف ، وقيل : معطوفة على ما قبلها : أي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم ، والأول أصح .

(**مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ**) أي : ما فرضناه وما أوجبناه عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم .

إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) **قيل:** أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، **وقيل:** ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، والأول أرجح .

قال القرطبي : الاستثناء منقطع ، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله.

قال ابن القيم : أي : لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله .

(**فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**) أي : فما قاموا بما التزموه حق القيام .

قال ابن كثير : وهذا ذم لهم من وجهين :

أحدهما : في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله ، والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله .

- فيه من التزم نذراً لله او قربة فعليه الوفاء والقيام بها حق القيام (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) .
- وَقالَ تَعَالَى: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً** ﴾ .

قال ابن كثير : (**وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ** ...) قال عبد الله بن كثير، والسدّي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه ، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

قال ابن قتيبة : هذه الآية متعلقة بما قبلها ، والتقدير : وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأَيمان ، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثاً .

- وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ .

قال السعدي (**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**) أي: الموت أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ تسليماً كثيراً.

قال ابن كثير : ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري، عن عمران بن حصين، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال : صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جَنْب .

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه .

حديث عائشة : وَكَانَ أَحَبُّ الدِّين إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيهِ . وَقَدْ سَبَقَ فِي البَاب قَبْلَهُ .

١٥٣- وعن عمر بن الخطاب ﷺ **، قَالَ : قَالَ رَسُول الله** ﷺ **(مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ مِنَ اللَّيلِ ، أَوْ عَنْ شَيءٍ مِنْهُ ، فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ الظُّهْرِ ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيل) رواه مسلم .**

(**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ**) الحزب ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة .

(**أَوْ عَنْ شَيءٍ مِنْهُ**) أو نام عن شيء من حزبه .

(**فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ الظُّهْرِ**) يحتمل أن يكون تحريضاً على المبادرة ، ويحتمل أن أفضل الأداء مع المضاعفة مشروط بخصوص الوقت .

كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيل) أي : أثبت أجره في صحيفة عمله ، إثباتاً مثل إثباته حين قرأه من الليل .

١- الحديث دليل على المحافظة على الأعمال وعدم قطعها، وأن ما فات منها يستدركه ويقضيه، ويكتب له كأنما قرأه في وقته.

قال القرطبي : هذا تفضل من الله تعالى ، ودليل : على أن صلاةَ الليل أفضلُ من صلاة النهار. والحزبُ هنا الجزءُ من القرآن يُصلَّى به. وهذه الفضيلةُ إنما تحصلُ لمن غلبه نوم ، أو عذر منعه من القيام مع أن نيَّتَهُ القيام. وقد ذكر مالك في "الموطأ" عنه ﷺ قال (ما مِن امرئٍ تكونُ له صلاة بليل فَغَلبه عليها نوم إلا كتب الله له أجرَ صلاة ، وكان نومُه صدقةَ عليه) ، وهذا أتَمُّ في التَّفضيل والمجازاة بالنية .

٢- مشروعية اتخاذ ورد من العبادات في الليل ، وأن وقت القضاء ما بين صلاة الفجر إلى صلاة الظهر ، فمن فعله في هذا الوقت ، كان كمن فعله في الليل .

٣-مشروعية قيام الليل .

٤- ترويض النفس على الطاعة ومجاهدتها على المواظبة والاستمرار .

٥- الإشارة إلى قوله تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ...) .

٦- يسر الشريعة الإسلامية وسماحتها .

٧-لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

١٥٤-وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رَضِيَ الله عنهما ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ (يَا عبدَ اللهِ ، لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلان ، كَانَ يَقُومُ اللَّيلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيل) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

(**لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ**) قال الحافظ : لم أقف على تسميته في شيء من الطرق ، وكأن إيهام مثل هذا القصد السترة عليه ، ويحتمل أن يكون النبي ﷺ لم يقصد شخصاً معيناً ، وإنما أراد تنفير عبد الله بن عمرو .

(**من الليل**) أي بعض الليل .

(**فَتَرَكَ قِيَامَ اَللِيل**) الظاهر أن تركه ذلك كان من غير عذر ، لأنه لو كان لعذر لما ذُمّ بتركه .

١-الحديث دليل على ذم قطع العبادة بعد الدخول فيها .

٢- الحديث دليل على فضل المداومة على العمل الصالح ، فمن فضائله – وقد تقدمت - :

أولاً : أن ذلك من أحب الأعمال إلى الله .

قال ﷺ (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل) . متفق عليه

ثانياً : أن ذلك من هدي النبي ﷺ .

فعن عائشة قالت (كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبته) رواه مسلم .

ثالثاً : أنها سبب لمحبة الله .

كما جاء في الحديث : (... ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ...) .

رابعاً : سبب للنجاة من الشدائد .

قال ﷺ : (احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده اتجاهك) .

خامساً : أنها سبب لمحو الخطايا والذنوب .

قال ﷺ (من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) متفق عليه

سادساً : أن من داوم على عمل صالح ، ثم انقطع عنه بسبب مرض أو سفر ، فإنه يكتب له أجر ذلك العمل

كما قال ﷺ (إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً) رواه البخاري .

قال الحافظ ابن حجر : هذا في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها ، وكانت نيته – لولا المانع – أن يدوم عليها .

٣- جواز ذكر الشخص بما فيه من عيب إذا قصد بذلك التحذير من صنيعته .

٤- ينبغي على الداعية عند الإنكار ألا يذكر الأشخاص بأعيانهم .

قال الشيخ ابن عثيمين :

يحتمل : هذا الإبهام أن يكون من النبي ﷺ وأن النبي ﷺ أحب ألا يذكر اسم الرجل ، ويحتمل أنه من عبد الله بن عمرو ، أبهمه لئلا يطلع عليه الرواة .

ويحتمل أنه من الراوى بعد عبد الله بن عمرو .

وآياً كان ففيه دليل على أن المهم من الأمور والقضايا القضية نفسها دون ذكر الأشخاص ، ولهذا كان من هدي النبي أنه إذا أراد أن ينهي عن شيء فإنه لا يذكر الأشخاص ، وإنما يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا وما أشبه ذلك

وترك ذكر اسم الشخص فيه فائدتان عظيمتان :

الفائدة الأولى : الستر على هذا الشخص .

الفائدة الثانية : أن هذا الشخص ربما تتغير حاله ؛ فلا يستحق الحكم الذي يحكم عليه في الوقت الحاضر ؛ لأن القلوب بيد الله ، فمثلاً : هب أنني رأيت رجلاً على فسق ، فإذا ذكرت اسمه ، فقلت لشخص : لا تكن مثل فلان ؛ يسرق أو يزني أو يشرب الخمر ، أو ما أشبه ذلك ، فربما تتغير حال هذا الرجل ، ويستقيم ، ويعبد الله ، فلا يستحق الحكم الذي ذكرته من قبل ، فهذا كان الإبهام في هذه الأمور أولى وأحسن ، لما فيه من ستر ، ولما فيه من الاحتياط إذا تغيرت حال الشخص .

٥- التواصي على الحق والصبر عليه .

٦- حرص النبي ﷺ على توجيه أصحابه .

٧- فضل قيام الليل .

٨- حرص عبد الله بن عمرو على الخير والطاعة .

٩-مجاهدة النفس على الاستمرار على العبادة والطاعة .

١٥٥- وعن عائشة رضي الله عنها ، قَالَتْ (كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلاةُ مِنَ اللَّيلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيرِهِ، صَلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشرَةَ رَكْعَة) رواه مسلم .

١- الحديث دليل على استحباب قضاء ما فات من قيام الليل لمرض أو نحوه .

٢- قولها (صلى من النهار ثنتي عشرة ...) لأنه ﷺ كان يوتر بإحدى عشر ركعة ، فإذا قضي الليل ولم يوتر لنوم أو شبهه ؛ فإنه يقضي هذه الصلاة ، لكن لما فات وقت الوتر صار المشروع أن يجعله شفعاً ، بناء على ذلك : فمن كان يوتر بثلاث ونام عن وتره فليصل في النهار أربعاً ، وإذا كان يوتر بخمس فليصل ستاً ، وإن كان يوتر بسبع فليصل ثماني ، وإن كان يوتر بتسع فليصل عشراً ، وإن كان يوتر بإحدى عشرة ركعة فليصل اثنتي عشرة ركعة ، كما كان النبي ﷺ يفعله .

وفي هذا دليل على فائدة مهمة وهي : أن العبادة المؤقتة إذا فاتت عن وقتها لعذر فإنها تقضى ، أما العبادة المربوطة بسبب ؛ فإنه إذا زال سببها لا تقضى ، ومن ذلك سنة الوضوء مثلاً ؛ إذا توضأ الإنسان فإن من السنة أن يصلي ركعتين ، فإذا نسى ولم يذكر إلا بعد مدة طويلة سقطت عنه ،وكذلك إذا دخل المسجد وجلس ناسياً ، ولم يذكر إلا بعد مدة طويلة فإن تحية المسجد تسقط عنه ؛ لأن المقرون بسبب لابد أن يكون موالياً للسبب ، فإن فصل بينهما سقط .